الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٣٠	في مصر والسودان
٥٠	في الممالك الأخرى
١	ثمن العدد الواحد

الإدارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الرابع — ٢ محرم سنة ١٣٥٦ — ١٥ مارس سنة ١٩٣٧ — السنة الأولى

في الربيع

للقصصي الفرنسي جي دي موباسان

بقلم احمد حسن الزيات

حينما تقبل أوائل الأيام الجميلة فتستيقظ الأرض، وتخضوضر الحقول، وينبعث النسيم الفاتر العاطر فينفح الجسوم ويملأ الصدور حتى كأنما يخلص إلى الأفئدة، تخالج أنفسنا رغبات غير واضحة لسعادة غير محدودة، فنتوق إلى الجريان، ونصبو إلى الجولان، ونسعى إلى المغامرة، ونهفو إلى ارتشاف الربيع

وكان الشتاء في عامنا المنصرم قارساً شديد الزمهرير، فكانت الحاجة إلى التطلق والانبساط في شهر مايو أشبه بالنشوة التي تغمر وبالحميا التي تفيض

ففي ذات صباح من أصباح الربيع تيقظت فاذا بي ألمح من النافذة بساط السماء الأزرق ممدوداً على سطوح المنازل المجاورة، وقد اشتملت الشمس في سرته وحواشيه؛ وكانت العصافير الناشبة في الشبابيك تغرد وتسرف في التغريد، والخادمات في جميع طبقات البيت يغنين ويبالغن في الترديد، وضجة الحبور والمرح تصعد من الشارع إليّ، فخرجت والفكر جذلان مشرق أهيم في المدينة

لا أعرف لى وجها ولا غاية ؛ وكانت بسمات السرور تتألق فى وجوه المارين ، ونسمات السعادة تهتز فى أجواء الربيع . وكأنما هبت على المدينة نفحة سارية من الحب ، فالفتيات اللاتى يمشين فى زينة الصباح وفى عيونهن حنان مكتوم ، وفى مشيتهن رشاقة خفوة ، كن يبعثن فى قلبى اضطرابا ومشغلة

بلغت ضفة (السين) ولا أعرف كيف ولا أدرى لماذا ؛ فلما رأيت البواخر تجرى نحو (سيربنس) نازعتنى نفسى إلى أن أجوس خلال الغاب فركبت إحداها

وكان ظهر الباخرة (موش) مغطى بالمسافرين فما تجد موضعاً لقدم ، لأن أشعة الربيع الأولى لاتدع إنساناً قابعاً فى مسكنه ؛ وكان كل راكب عليها قد استخفه النشاط فهو يذهب ويجىء ويضطرم فى نفسه ويتحدث إلى جاره . وكان جوارى لفتاة صغيرة لا شك أنها عاملة . هى باريسية الأناقة بارعة الظرف ، لها رأس لطيف التكوين أشقر اللون ، قد استوى شعره حلقاً على الصدغين ، ثم تجعد وتجمد فصار كأنه ضوء متموج ؛ ثم انحدر إلى الأذن ، وسال على العنق ، ثم انتهى فى أسفل الجيد إلى زغب دقيق رقيق أصهب تكاد لا تراه ، ولكنك تحس فى نفسك رغبة ملحة فى أن ترسل عليه غمراً من القبل

التفتت الفتاة إلى إجابة لألحاح نظرى ؛ ثم كسرت طرفها فجأة ، ولاح على وجهها قطوب خفيف أشبه بالابتسام البادىء ، أخفى زاوية فمها بعض الخفاء ، ولكنه أظهر ثانية ذلك الزغب الناعم الشاحب الذى ذهبته الشمس قليلاً

كان النهر الهادىء ينفرج ما بين ضفتيه ، والجو الضاحك تنتشر فيه سكينة الدفء ، والفضاء المشرق تزخر به غمغمة الحياة .

فرفعت جارتى بصرها ثانية إلى ، وفى هذه المرة كما بدا لى من مراقبتها كانت بسمتها صريحة قاطعة . وكانت فى هذا الوضع رائعة فاتنة حتى كشفت فى نظرها المختلس الهارب ألف شىء كانت مجهولة : كشفت فيه أغواراً لم تدرك . فيها كل ما نرغب من الحنان ، وكل ما نطلب من الشعر ، وكل ما نبغى من السعادة ؛ فتملكتنى رغبة جنونية فى أن أفتح ذراعى فأحملها إلى مكان آخر ثم أهمس فى أذنها بشعر الهوى وموسيقى الغزل

مات عليها وهممت أن أفتح فى لأتكلم وإذا بيد تلمس كتفى ، فالتفت مبهوتاً فرأيت رجلاً عادى الهيئة متوسط العمر ينظر إلى فى حزن ويقول فى جد : « أريد أن أكلك فى أمر » فبدت على وجهى جهومة لم تخف عليه لأنه قال : « إن الأمر جد »

فنهضت من مجلسى وتبعته حتى انتبذ بى مكاناً فى الطرف الآخر من السفينة ثم أنشأ يقول : « حينما يدنو الشتاء يا سيدى بقره ومطره وثلجه يقول لك طبيبك كل يوم : « لا تهمل تدفئة قدميك ، واحذر البرد والزكام وذات الرئة وذات الجنب » فتحسب ألف حساب وتتخذ ألف حيطة : تكتسى القميص الصوف ، وترتدى المعطف الثقيل ، وتنتعل الحذاء الغليظ ، ثم لا يمنعك ذلك من أن تقضى شهرين فى السرير . ولكن حينما يعود الربيع بنضرة عوده ، وبهجة وروده ، ونسيمه الفاتر الذى يرخى المفاصل ، ونفسه العاطر الذى يبلل الصدر ، لا تجد من يقول لك : « حذار من الحب يا سيدى ! إنه يتعقبك فى كل مكان ، ويترصدك فى كل كمين . كل حبله منصوبة ، وكل أسلحته مشحوذة ، وكل غدراته مهيأة ! حذار من الحب ! حذار من الحب ! إنه أشد خطراً من الزكام وذات الرئة وذات الجنب . إنه لا يشفق ولا يرحم ، ومن طبعه أن يحمل ضحاياه على أن يأتوا من السخف والحمق ما لا علاج له ولا حيلة فيه » أجل يا سيدى ! إن من رأيى أن تكتب الحكومة فى كل عام بالخط الغليظ على الجدران هذا الإعلان : عاد الربيع . فاحذروا أيها الفرنسيون من الحب » كما يكتبون على أبواب المنازل المدهونة : « احذروا من الدهان ! » وما دامت الحكومة لم تفعل فإنى أقوم مقامها فى ذلك وأقول لك : « احذر من الحب ، فإنه يهم أن ينشب فيك مخالبه ؛ ومن واجبى أن أنبهك إليه كما ينبه الروسيون المار إذا قرص أنفه البرد فيبس »

لبثت دهشاً مبهوتاً أمام هذا الرجل الغريب ، ثم اتخذت هيئة الوقار ، وتكلفت لهجة الجد ، وقلت له : أراك تدخل ياسيدى فيما لا يعنيك » فتحرك حركة عنيفة ثم قال : « أوه ! سيدى ! سيدى : إذا رأيت إنساناً يشرف على الغرق فهل يجوز أن أدعه يغرق ؟ إستمع قصتى فستعرف بعدها لماذا جرؤت على أن أكلك على هذا الوجه :

« كان ذلك فى مثل هذا الفصل من العام الماضى ، ويجب أن تعلم يا سيدى أولاً أنى موظف بوزارة البحرية ، ورؤساؤنا العسكريون يتخذون من شاراتهم وشرائطهم حجة على أن يعاملونا معاملة مهينة : آه لو كان كل الرؤساء ملكيين ! ما علينا ! فلمحت من شباك مكتبى طرفاً أزرق صغيراً من حاشية الأفق يطير فيه السنونو ، فقام بنفسى أن أرقص فى وسط دفاترى وأضابيرى . واشتدت رغبتى فى الحرية حتى ذهبت على الكره منى إلى قردى أو رئيسى ، وهو رجل ضئيل الجسم نزق الطبع لا يتزايل عن وجهه الغضب لحظة ، فقلت له : إنى مريض ، فصاح فى وجهى وقال : أنا لا أصدق ذلك ، إذهب عنى . أتظن أن العمل يمشى على أمثالك من الموظفين ؟ » لم أذهب إلى المكتب كما أراد ، وإنما ذهبت إلى السين كما أردت ؛ وكان جو ذلك اليوم كجو هذا اليوم ، فركبت الباخرة (موش) لأجول جولة فى ضاحية (سان كلو) . آه يا سيدى ما كان أحق رئيسى أن يحول بينى وبين الخروج ! لقد خيل إلى أن مشاعرى وجسمى مدتها حرارة الشمس ، فأنا أحب كل شىء : أحب الباخرة والنهر والشجر والمنازل والجيران وكل ما فى الطبيعة من صامت وناطق . لقد كنت أتوق إلى أن أعانق أى

شيء كائناً ما كان . ذلك هو الحب الذى كان يدبر حيله وينصب شراكه

وفى (التروكادرو) على حين بغتة صعدت إلى الباخرة فتاة فى يدها صرة وجلست أمامى . لقد كانت فتانة المحاسن يا سيدى ، ومن العجيب أن النساء يظهرن فى أيام الربيع أحسن وأجمل ، إذ تبدو عليهن الجهارة والفتنة وشيء خاص لا أدريه كأنه شرب النبيذ بعد أكل الجبن

نظرت إليها ونظرت إلى ؛ وكان ذلك حيناً بعد حين كما فعلت صاحبتك . وأخيراً خيل إلى من طول ما أدمنا النظر أننا تعارفنا ، وأن ذلك التعارف يجيز لى أن أناقلها الحديث ، فكلمتها ، فأجابت على كلامى ؛ وكانت لطيفة الروح ، طلية الحديث ، فأطربتنى يا سيدى وأسكرتنى

وفى (سان كاو) نزلتْ ونزلتُ ، وكان الذى معها عملاً مطلوباً لبعض الناس فذهبت تسلمه . فلما رجعت كانت الباخرة قد رجعت . فأخذت أمشى بجانبها وعذوبة الهواء تنتزع منى ومنها زفرات تتصعد ، فقلت لها : إن الجو فى الغابات يكون أروع وأمتع . فقالت . أى نعم ، فقلت لهـا : أتحبين أن نجول هناك جولة ؟ فنقدتنى خلسة بنظرها السريع كأنما كانت تقدر فى رأيها كم أساوى ، ثم نزلت على اقتراحى بعد تردد قليل

ها نحن ذان نسير جنباً إلى جنب وسط الأدواح والشجر ، ولا يزال تحت الأوراق بعض الجليد ، والعشب الطويل الكثيف ذو الخضرة اللامعة يغرق فى ضوء الشمس ، ويشرق علايين من الحشرات تتحاب وتتعاشق أيضاً . وكانت الطيور تسجع فى كل مكان ؛ فأخذت صاحبتى تركض وتثب نشوى من صفاء الهواء ووضاءة الربيع ؛ وجعلت أنا كذلك أتبعها فأعدو كما تعدو ، وأطفر كما تطفر .

والمرء يا سيدى يعود بهيماً خالصاً فى بعض أحيانه . ثم غنت وهى ثائرة الشاعر مستطارة اللب ألف أغنية : منها الرفيع ومنها الوضيع ؛ وفى هذه اللحظة كانت هذه الأغانى وتلك فى مستوى سواء فى براعة الشعر وسمو اللحن . فانفعلت أشد الانفعال وكدت أبكى من فرط التأثر

أدركها التعب بعد قليل فقعدت على منحدر معشوشب ، وقعدت أنا بجانبها وتناولت يديها الصغيرتين ، فحرك شفقتى عليهـا ما وجدت على أناملها من آثار وخز الابرة ، فقلت : هذه هى العلامات المقدسة للعمل . فقالت : آه يا سيدى ! أتدرى ماذا تدل عليه العلامات المقدسة للعمل ؟ إنها تدل على المصنع الصاخب بلغو الزميلات ، والسمع الملوث بأخس الهمسات ، والذهن المدنس بأقذر الحكايات ، والعفاف المثلوم ، والعرض المكلوم ، وفضول الأحاديث السخيفة ، وغثاثة الأفكار الضعيفة ، وشقاوة الحياة اليوميـة ، وعلى كل ما تتخلق به المرأة العامية العاملة من ضيق الفكر ، وهجر الحديث ، ووقاحة التبذل

ثم حدق كل منا فى عين صاحبه طويلاً . آه : ما أقوى عين المرأة : وأشد ما تفتن وتغزو وتملك وتسيطر : ما أعمق هـذه العين وأملأها بالوعود والأحلام والأسرار ! لقد قالوا : إن العين مرآة القلب . وما أبعد هذا القول عن الصدق يا سيدى ! فان المرء لو اطلع من العين على دخيلة النفس لأبصر رشده وأقلع عن هواه ؛ فلا تصدق !

لقد ثارت وجن جنونى ، فهممت أن أضمها إلى صدرى فقالت : دع عنك هذا وأسقط المخالب !

حينئذ جثوت على قدميها ، وفتحت قلبى بين يديها ، ثم أخذت أريق على ركبتيها كل ما كان يكظمنى من الحنان ويكربنى من الحب . فدهشت لاضطرابى

وانقلابي ونظرت إلى عن عُرض وكأنما تقول في نفسها : « آه ! هكذا ينبغي أن يكون العبث بك والهيمنة عليك يا صاحبي ، وسترى : » والرجال في الحب يا سيدي صرحاء سذج ، والنساء فيه تاجرات حواذق

لقد كنت وقتئذ أستطيع الاستيلاء عليها مافي ذلك شك . ولقد أدركت هذا الخطأ بعد . ولكنني ما كنت أريد الجسد ولا أنشد اللذة . إنما كنت ابغي حنان المرأة الخالصة ، وجمال المثل الأعلى

فلما فرغت من بث نجواي وإعلان هواي نهضنا فعدنا إلى سان كلو ولم أفارقها إلا في باريس . وكانت لدى عودتنا كاسفة البال ساهمة الوجه فسألتها عن سبب ذلك فقالت : هـذا نهار من النُهُر التي لا تشرق في حياة المرء إلا قليلا » فخفق قلبي حتى كاد ينشق صدري من شدة خفوقه

لقيتها في الأحد التالي ، وفي الأحد الذي بعده ، وفي سائر أيام الآحاد . فذهبت بها إلى بوجيفال ، وسان جرمان ، وميزون لافاييت ، وبواسي . وغشينا كل مكان من أمكنة العاصمة يرتاده الحب ويتردد فيه الغزل . وكانت الماكرة لا تألو جهداً في إذكاء هواي واضرام شوقي ، حتى فقدت صوابي فلم تمض ثلاثة أشهر حتى تزوجتها

وهل يفعل غير ذلك ياسيدي موظف يعيش وحده من غير أسرة ولا مرشد ؟ لقد حدثته نفسه أن الحياة مع الزوجة ستكون سعيدة رغيدة . ولكن اسمع ماذا حدث :

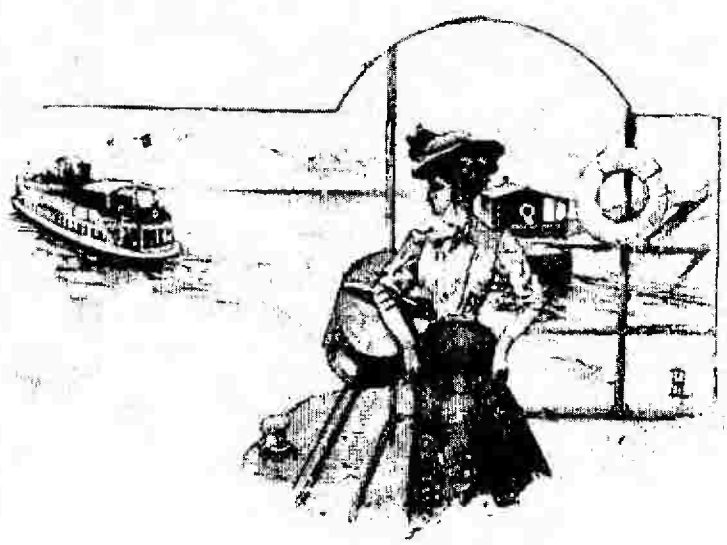

« وجدتها لاتفتر طول النهار عن السباب والشتم . ثم هي لاتفهم قولا ولاتعرف علماً . ثرثرة فياضة تصم الآذان ، وغناء متصل بصدع الرأس . تشاجر الفحام واللحام ، وتقص على البوابة دخائل البيت ، وتفشي إلى خادمة الجيران أسرار الفراش ، وتفدح زوجها بالمطالب الباهظة ، وتدفع في صدره بالحكايات السخيفة ، والاعتقادات الباطلة ، والآراء الفائلة ، والأحكام المسرفة ، حتى أكاد أبكي ياسيدي من القنوط والخيبة كلما تحدثت أليها »

ثم غلب الرجل الانفعال والوجد فصمت ؛ وأدركني على هذا المسكين الساذج رقة ، فأردت أن أجيب عن كلامه بشيء ، ولكن الباخرة كانت قد وقفت على مرفأ في سان كلو

نهضت الفتاة التي غزت فؤادي ومرت بجانبي وهي خارجة ، فألقت علي نظرة عن عرض ، وبسمة عن دلال ، ثم نزلت ؛ فهممت أن أثب وراءها ، ولكن جاري أمسك بكمي ، فحاولت أن أتخلص منه بحركة عنيفة فتشبث بطرف سترتي وجذبني إلى الوراء وهو يقول بصوت لفت إلينا الراكبين : لن تذهب ! لن تذهب !

فتضاحك من حولنا الناس ولبثت في مكاني جامداً مختنق الصدر ، لا أجرؤ على شيء أمام الخزي والفضيحة ، حتى عادت الباخرة ؛ وبقيت الفتاة على الرصيف تشيعني بالنظر الحزين الخائب وصاحبي إلى جانبي يفرك يديه ويهمس في أذني قائلا : « تالله ، لقد أسديت إليك يداً لا ينقضي شكرها أبد الدهر ! »

الزيات